

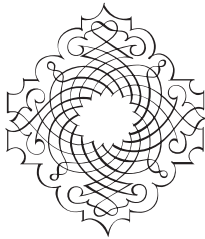
قلعة سيرين

ناجي التباب

الطبعة الأولى

2023

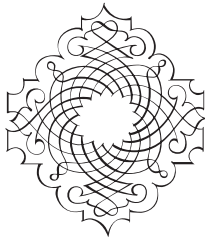




المغارة

ثمّ تعاضم بي الامر فنزلت إلى الشطّ واتّخذت من مغارة محفورة في الصخر مقابلة للقلعة ملاذاً وسكناً. وعند احتياج المهجة وخاصّة في الليالي التي لا تفتح فيها سيرين الشّرفة أترك كريمة وحيدة، وأدخل إلى ذلك الغار فأشعل فيه شمعة تبقى طوال الليل تذرّف الدّمعة تلو الدّمعة، وأنا ساهر معها ساهماً أراقب حركات البحر وسكناته. ومن حين إلى آخر أرفع بصري إلى أعلى القلعة طامعاً أن أرى غرفة سيرين مضاءة. فعندما تتراءى لي مظلمة موصدة يرتدّ بصري إلى الشّمعة فأجدها مع ضياء قبة السّماء عن الفجر قد أدركها الفناء من كثرة البكاء.

وقد تهيّأ لي في ليال عديدة كلّما سكن الجوّ أنّي أسمع بالقلعة جلبة جنود وقوّاد وصياح قراصنة وهم يتهاشون على مغنم أو سبايا، فأشعر بالخوف يكبّل مفاصلي خاصّة وأنّي كنت أسمع منذ الصّغر بأنّ القلعة تسكنها أرواح شريرة تسمع لها كلّما جنّ الليل همهمات وغمغمات. ولم يكن خوفي على نفسي بدرجة أولى وإنّما على سيرين التي كانت تختفي من حين إلى آخر عن الأنظار فتهيج لها في القوّاد نار تحرق ما فيه من اصطبار.



لنفر

في مقهى «الأفق» القريب من المغارة والقلعة كنت من حين إلى آخر أجلس هناك عند الأماسي لأشرب قهوة تقليدية. وهناك تعرفت على «لنفر» وهو رجل نَصَفْ مثلي طويل القامة عريض الكتفين، وافر البطن أحيانا أسمر البشرة، خفيف الشعر يكاد يكون أصلع. وقف أمامي هذا الرجل مرّة ذات يوم خميس وكان السُّكر باديا عليه، فقال لي «برحمة الوالدين أعطيني حويجة، راهي ليلة جمعة!» فعرفت أنه يريد إكمال سكرته فناولته دينارين، فمضى شاكرًا.

وبالتدريج صار لنفر حِلْسًا من أحلامي بالمقهى لا يكاد يفارقني، فكلّما رأني جالسًا يقصدني فأعطيته دينارا فضلا عن دفع معلوم ما يتناول من قهوة أو شاي. ومنه عرفت أنه كان فيما مضى طالبا التحق بكلية الحقوق ولكنه رسب في السنة الأولى ثلاث مرّات فتمّ طرده، وقيل إنّه افتعل مشكلة ما فأوصدوا أبواب الجامعة أمامه، فانتقل إلى «جامعة المقاهي» ببلاد «شبابادابا»، فصار يجول نهارًا وجزءًا من الليل متنقلا من مقهى إلى آخرها ممّا على وجهه يطلب ممّن يقصده دينارا واحدا ويعطيته مقابل ذلك شيئا ما على سبيل الهدية يكون قد تدبّره كمجلة قديمة أو كتاب

مستعمل أو حتى بعض الحبات من اللوز المجمر أو تفاحة أو برتقالة أو حبة رمان أو تين وما إلى ذلك حسب غلات الفصول.

وكان لنفر يتعفف من أخذ الدينار دون بدلٍ يعطيه، وفي معظم الأحيان لا يأخذ إلاّ دينارا واحدا، وإذا وجد المبلغ أقلّ منه مرّ ولم يلتف إليه. وتلك الدنانير كان لنفر يشتري طعامه من السوق وما يكفيه من علب التبغ المهربة الزهيدة الثمن وبالخصوص علب الجعة التي يقول عنها إنّها «مشقة» لا بدّ منها. وقد عرضت على لنفر مرارا عندما تمّ التعارف بيني وبينه أن يعمل معي، ولكنه كان في كلّ مرّة يرفض متعلّلا بكونه لا يتحمّل دوار البحر، فكنت أقول له ساخرا: «وأما دوار السكر فلا بأس به!! أنت تُهدر بنيتك الجسدية الهائلة في حياة بلا معنى تعيشها، ولو أنفقتها في العمل لصار لك شأن آخر». فكان يهزّ كتفيه غير مكترث بنصائحي وكلامي.

ومهما تكن عيوب لنفر فإنّي وجدت فيه رجلا خدوماً طيّب المعشر. ولهذا السّبب صرت أستدعيه ليشرب قواريره عندي بالمغارة المقابلة للقلعة ونحن نتبادل التّوادر ونتداوى بالصّحك. وفي يوم فاتحته في موضوع ما أرى أعلى القلعة فقلت له: «انظر يا لنفر إلى الأعلى، إلى تلك الشرفة في القلعة، هل ترى معي شيئا؟ فرّفع رأسه بثاقل ونظر، ثمّ قال لي: نعم هناك بعض